من جماليّات الصورة الشعرية

قبسات وإضاءات

سعى العلم إلى أن يبسط سلطانه على الجمال فتأبَّى... سعى العلم إلى أن يحيط بكنه الجمال فما أفلح... وظل الجمال حرًا طليقاً... لا يحده حد، ولا يحاصره قيد... يتراءى لك... يتبدَّى... يدنو وينأى... يثور ويثير، يطوف ويحلق... يتحرك ويسكن... يعانق ويفارق... ينشر البهجة، وينثر اللوعة... يفعل ذلك وغيره... وهو حر ذو أنفة وكبرياء... لا يذعن لسلطان الحدود... ولا تعرف أسراره الضوابط والقيود... كل ما أحرزه العلم في رحلته الشائقة الشائكة وراء الجمال لا تعدو كونها محاولات ومقاربات...

من يقرأ همس الشواطئ... وغضب البحار... من يقرأ لغة الأشواك والأزهار... من يفقه تغريد الطيور... وانسياب الجداول والأنهار... من يدرك سرسواد الليل... ومن يمسك ضوء النهار... من يفهم مقاصد العَبَق والرحيق... ومن يترجم لغة النسيم العليل... ومن ينقل عن العواصف والأعاصير... من يعلم لغة الزلازل والبراكين... ومن يشرح لغة الليل إذا سجى أو دجى... من يعلم أنداء النجوى... ومن يشرح لغة موسيقا الصوت النديّ... أو يعلم سحر الإيقاع الشجي... فمن ذا الذي يحاصر الشعاع؟ أو يجمع العطر الفواح في الآفاق؟ ومن يدرك الشذا الذي يجوب النجود والوهاد... ومن يسبر غور البسمة والدمعة... بسمة الحب والوداد... ودمعة اللقاء والوداع... من يمسك بأركان الطيف إذا حلَّ وطاف... من يحصي أصداء الذكريات... ومن يغوص في أعماق القسمات... من يحيط بأسرار البسمات... أو يدرك مقاصد الزفرات والآهات...

إنَّه الجمال... الجمال يجيب عن هذه الأسئلة وغيرها.

وصدق الشاعر القائل:

إنَّ مَنْ رامَ للكواكبِ عَدًّا　　　يَتَساوَى ابتداؤُهُ وانتهاؤُهْ[1]

إنَّ الحرية التي يتمتع بها الجمال تغري النفس والشعور إلى العيش في ظلاله، والاستمتاع في آفاقه وعوالمه... النفس بفطرتها توّاقة للحرية... توّاقة لحرية الجمال... ونحن الآن في رحلة جمالية كثيرة الأشواق قليلة الأشواك... لا يحدُّها حدّ ولا يقيّدها قيدٌ.... لم تصطحب هذه الرحلة الجمالية معها من أدوات التحليل ومناهج الدراسات الأدبية والنقدية إلَّا ما خَفَّ حِمْلُهُ، ولَطُفَ ظِلُّهُ، وهذا النوع من المناهج هو ما تُمْليهِ مُكَوِّناتُ النصّ وإيحاءاتُهُ مصحوبةً برؤية المتلقّي. ومن أبرز مظاهر المنهج وأدوات التحليل التي صَحِبَتْ هذه التطوافة الجمالية: التّأمُّل ... والاستيحاء...والاستبطان... والاستدعاء... والموازنة... والتعليل... والكشف... والبوح..... لتلمُّس مظاهر الجمال وتجلِّياته وصولًا إلى الإمتاع... لم تُثْقِلْ كاهلَها ضوابطُ المناهج وقواعدها... بل اكتفت منها بما رأته زادًا مناسبًا للمسير والتطواف... قد تصطفي من رياض علوم اللغة كالصرف والنحو والبلاغة، ومن مناهج الدراسة والنقد ما تراه سندًا لها وعونًا في مساراتها وهاديًا لها في الآفاق التي تجوبها... دون أن يكون لهذه القواعد والمناهج سلطان قَسْرِيّ... فأجود المناهج في التحليل والنقد ما جاء راغبًا لا مُرْغمًا كارهًا...

في هذه الرحلة الجمالية نجوس رياضاً أنفاً... نلامس قطوفاً دانية وأخرى نائية... نصغي ونرهف السمع... نرحل ونطوف... ونلقي عصا الترحال... نأنس ونفرح ونشتم... نألم وننقبض ونأسى... نتقدم ونحجم... نتأمل ونبوح... نهمس ونجهر... هكذا رحلة الجمال... أو هكذا قطوفه وقبساته... فإلى رحاب عوالم الجمال الشعري، مع قبسات... مع بسمات وزفرات...

1- من مشاهد القوة والجمال:

أ- قال عنترة مصوِّرًا نفسَهُ بين عالمَي الحبّ والحرب[2]:

- **ولقدْ ذكرتُكِ والرِّماحُ نواهِلٌ منِّي   وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي**
- **فَوَدِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنَّها   لَمَعَتْ كبارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ**

الجمال رقة وعذوبة واستمتاع، ومسرة وهناءة.. وغير ذلك من مشاعر الغبطة والسعادة... فالجميل من كل شيء يبث في النفوس الأمل والإشراق والفرح... والجمال يجعل للعيش طعمًا حلوًا محببًا، ويجعل الإنسان يتعلق به، ويحرص عليه... الجمال عالم بل عوالم من الأنس والحب والبهجة... هو الوجه الصبيح الطلق للحياة... والنفس البشرية بفطرتها تواقة إليه، تواقة للعيش في ظلاله... إنه فيض من السرور والطمأنينة... وكل امرئ طامح إلى ذلك طامع فيه... يغتنم كل فرصة سانحة يطل بها طيف الجمال على قلبه ونفسه؛ لتمتلأ أنسًا وحبورًا... وكيف ينال الجمال حظه من البيان، وهو عوالم لا تكاد تحصى، ولحظات وإشراقات تستعصي على الوصف والإحاطة... وليس لدينا من الإحساس به وبيان ملامحه سوى الإشارات، وشذرات من القول توحي باليسير من سماته وطبيعته...

والقوة تعني الشدة والحزم والعزم، وقد تغري –إذا لم تحصَّن بضوابط إنسانية- بالتباهي والزهو، وإذا لم يكن عليها من الحق والعدل رقيب قد تقود إلى النفوذ والسيطرة . بل قد تأخذ بأصحابها إلى العدوان والفتك والبطش... فتجاور الظلم، بل تصبح شقيقة له...! والسؤال الآن: كيف يلتقي الجمال والقوة؟ كيف تلتقي الخشونةُ والشدة والرقة والعذوبة؟! كيف يلتقي الموتُ والدمُ والطمأنينةُ وعشقُ الحياة؟! إنها أجنحة الخيال الشعري، التي تطوّف، فتجمع النقائض، وتأتي بكل عجيب...!

الرماح تشرب من دم عنترة، والسيوف ارتوت منه أيضًا والدم يسيل من شفراتها، أية حالة هذه التي صورتها جملة الحال (والرماح نواهل...) إنها حالة نقف مليًا عند معرفتها وفهمها فهو إما على وشك السقوط والموت، إذ ليس بعد نزيف الدم إلا الرحيل. وإما هو في حالة النزف الذي مازال يصحبه نبض الحياة؛ ليلتقي الدم بفرحة الغلبة والنصر... وفي كلتا الحالتين الضريبة كبيرة، والثمن باهظ. إنه الدم الذي هو عنصر الحياة البارز... فالشاعر بين الألم والموت والنصر والحياة... بين الألم الذي قد يعقبه الموت... والنصر الذي يجود بحياة تعلوها العزة والكرامة... وفي الحالتين هو مأزوم مكابد معانٍ... وفي هذا العالم الدموي يتسلل إلى خياله لواذاً طيف حبيبته، فيتذكرها فيزداد مضيًا وإصرارًا على الثبات ورباطة الجأش، غير مبال بعالم الألم والموت... العالم الذي تشتجر فيه الرماح والسيوف، بل تتسابق إلى الارتواء من دمه، فالرماح تنهل والسيوف تقطر... والجسد يتلوى من الآلام... والقلب الذي يسكن ذلك الجسد يتنزى كالليث الأسير، الذي يكتوي بالصراع بين القيد وذله، والانعتاق مصحوبًا بالجراح...

في هذا الموقف العصيب، تتلامح له أطياف حبيبته، فتجعله يتجاوز الدم والخوف والهول، ويقبل على شفرات السيوف... شفرات الموت، ليجد فيها الحياة، بل ليجد فيها جمال الحياة... الذي يتجسّد بعناق حبيبته... فبريق السيوف لم يعد يحمل له رعبًا قد يتوج بالموت... لم تعد تلك السيوف جنودًا تخطف الأرواح من الأجساد إلى عالم الموت...؟! لكنها غدت عند عنترة تجمع النقيضين، تجمع الألم واللذة، تجمع الرهبة والرغبة، والمشهد يثير كثيرًا من الأسئلة، منها: هل طلب الموت يشكل قنطرة يعبر منها الفارس إلى الحياة؟ هل استمرأ الأبطال طعم الموت فغدا هو الحياة؟ الموت الذي له أهواله وشدائده كيف يغدو حياة بكل ما تحمل من معاني المسرة والهناءة؟ هل للأبطال قلوب من نمط خاص ترى الموت برهبته قد يفوق الحياة بجمالها؟ هل وصلت مشاعر العشق إلى درجة من القوة مكَّنتها من منافسة هول المنايا؟ أي شعور دنيوي ينافس الفزع من الموت، فيلتقيه ويعانقه، كيف يتعانق الموت والحياة؟

أسئلة كثيرة يحار المرء في كثرتها والإجابة عنها... إنَّ المشهد الذي يستشف من هذين البيتين يحمل فيضًا من هذه الأسئلة، والمعاني، والتأويلات... ولعل جماله يكمن في هذه الوفرة من الإيحاءات والإشارات. إنه المشهد التصويري البارع، الذي طاف في أحاسيس الشاعر فملأها، فنقله الشاعر إلينا بهذه الصورة المثيرة للدهشة والتساؤل الذي لا ينتهي...

تعال وارقب هذه الصورة المذهلة مرة أخرى شفرات سيوف تلمع وتبرق منذرة بموت زؤام، وشفاه لا تبالي بهذا الرعب كله، بل إنها تقبل بقوة على عناق تلك الشفرات القاتلة، لأن بريقها لا يحمل رحيلاً أو موتاً، بل يحمل حبًا وأنسًا وسرورًا...! هل هذا يعني أن قلوب الرجال الأشداء استوت عندها الشفرات القاتلة والشفاه المؤنسة...؟ هل غدا الموت والحياة وجهين لورقة واحدة؟ بل إن قول عنترة يوحي بأكثر من هذا، فهو مقبل على شفرة السيف وبريقها القاتل، إقبال المحب، لأنها ذكرته بالمحبوب... إن إقباله يحمل في طياته ما يفوق "الحب" إلى "الود". حيث قال: "فوددتُ" ولا يخفى أنَّ إيحاء "وددت" له درجة عالية في مراقي الحب... فالسيوف تنادي بالتقتيل، وخياله يسعى إلى التقبيل... هكذا يجتمع لدى الشاعر الفارس الرعب والأنس، تجتمع الحرب والسلام، تجتمع القوة والجمال، يجتمع الموت والحياة.

وإلى مشهد آخر من مشاهد القوة والجمال:

ب- قال المتنبي يمدح سيف الدولة:

وَنَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرَةً　　　كَما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدراهمُ[3]

في البيت مشهدان من عالَمَيْن متباعدين؛ أحدهما من عالم السلام والأنس والبهجة، والآخر من عالم الحرب... عالم السيف والدم والفزع... ففي المشهد المستوحى من عالم الحرب... يبدو لنا سيف الدولة –ومن ورائه جيوشه الجرارة- قد فرّق جموع العدو، وشتت شملهم، بل الأمر أهون عليه من التفريق والتشتيت لقد هان شأن الأعداء عنده، فلم يحوجه إلى ذلك كله... كانوا أمامه –بما امتلكه من أسباب القوة والنصر- أقل من أن يوجه إليهم شدة بأسه وقوته... كانوا –على الرغم من قوتهم- أمرًا هينًا لديه... فقد نثرهم دون عناء يذكر... كما ينثر المرء حفنة حب أو رمل... فلا يكلفه الأمر سوى أن يمد ذراعه، ويبسط كفه لينتثر الحب أو الرمل... ولكنه استمر في التقليل من شأن العدو على الرغم من قوته، ليظهر لنا قوة سيف الدولة الغالبة... فالنصر

الحقيقي لا يكون على الضعفاء بل على الأقوياء... إنه يقهر الأقوياء بقليل من الجهد... فهم أشبه بحبات تنثر لا تشق على الناثر بشيء...

والمشهد الآخر في البيت مألوف في التقاليد... فالعروس التي علاها كثير من مظاهر الزينة والبهجة، تصحبها وتحيط بها كل عوامل الفرح والسرور... فكل مَنْ في موكبها يسعى في عالم من السرور والسعادة... ومن مظاهر هذا العالم أن تنثر الدراهم على العروس تعبيرًا عن معان كثيرة؛ كالفرحة والتضحية، والكرم، والمساندة... فالنقود -على علو قيمتها وأثرها في الحياة - تتطاير بسخاء فوق العروس معلنة ما لا يحصى من مشاعر الحبور والحب والعطاء، والطمأنينة التي تهش لها نفس العروس وهي تغادر العش الذي درجت فيه إلى العش الذي لما تألفه، إلى عش الزوجية... وقلبها يساوره كثير من الرهبة والخشية من رحلتها الجديدة بما تنطوي عليه من ترقب وحذر...

مشهدان متغايران يلتقيان في رحاب الخيال المبدع ليوحي لنا الشاعر بقوة ممدوحه... فالحرب عنده –على الرغم من أهوالها- هينة..فكأنه في فرح... في موكب زفاف... علت فيه أمارات البهجة وملأت القلوب الطمأنينة، فلا فزع و لا رُعْبَ بل فرح وبهجة... فعندما تتحول الحرب إلى عرس وتصبح القتلى تتناثر على "جبل الأحيدب" كما تتناثر الدراهم على العروس، نستشعر مدى القوة التي تفوق الوصف... القوة التي استوت فيها الأضداد... فغدت مشاهد الدم والفزع والأهوال مشاهد أعراس وأفراح ومسرات. إنها القوة التي تصعب الإحاطة بوصفها.

فمن غدت جحافل جيشه بعددها وعُددها تشبه مواكب أعراسه، فليت شعري ماذا تشبه أعراسه؟ فما الموكب الجميل الذي سنشبهها به؟

إنه السؤال الذي يشبه سؤال المتنبي نفسه في بيت له يقول فيه مادحًا أميرًا:

أمعفرّ الليثِ الهِزَبْرِ بسوطِهِ   لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقُولا[4]

فممدوحه –هنا- عفرّ الأسد الهصور على قوة بأسه وبطشه- بالسوط، فمن الخصم الذي أبقى له سيفه الصارم؟ وكأن لسان الحال يقول: لم يبق أحد يقوى على مخاصمتك بعد أن علم من أمر قوتك ما عَلِمَ. فبسوطك تقهر الأسد، فمن الخصم الذي يفوق ملك الغابة قوة وبطشًا حتى يقوى على مواجهة سيفك البتار؟ والجواب: لا أحد. خلت ساحتك لقوة بأسك من الخصوم. وكذا الحال بشأن موكب العروس. فمعاركك أعراس... فكيف تكون أعراسك؟ ولعل الجواب: لا نظير لها من زهوتها وجمالها، وكأن السؤالين حول العرس والسيف يفتحان خيال المتلقي على آفاق ممتدة، يُكتفى فيها بالتأمل والتلميح؛ فهما في الشعر أبلغ من التعبير والتصريح.

تأمَّل معي أثر الإيقاع المنبعث من تكرار الصيغ المتنوعة للفظ الدال على النثر (ونثرتهم، ..نثر .. كما نثرت..). إن هذه الصيغ المتتابعة كل منها يوحي بمشهد جزئي، ويقود ائتلاف هذه المشاهد الجزئية إلى جمال المشهد المتكامل الشامل..

- **ونثرتهم فوق الأحيدب**... مشهد جزئي له إيحاءاته وتفصيلاته...

- **نثرةً**... مجيء المصدر في حالة التنكير يوحي بمشهد آخر... والتنكير – هنا- يطلق للخيال العِنان ليتأمل أنماطًا وأوضاعًا من النثر والتفريق، كل منها يبعث صورة لها مذاقها...

- **كما نُثرت فوق العروس الدراهم...** مشهد آخر له إثاراته وإيماءاته... فلكل لفظ منه هالة خاصة... كلمة

- **نُثرت بصيغة المجهول،** وللمجهول –هنا- طعمه وصورته الموحية.. فوق العروس... لك أن تستحضر هذا أيضًا مع ما يرافقه من صور تتوارد في الخاطر...

- **الدراهم**... لها أيضًا بريقها وتداعياتها...

وبعد هذا التفكيك الذي جاء بهدف الاستحضار الجزئي لمكوّنات المشهد... يأتي تجميع الإيحاءات المنبعثة من أركان الصورة المتكاملة التي اشتمل عليها البيت وبذا نستشعر التألق المنطلق من اجتماع هذه الأركان وائتلافها...

وبعد أن تأملنا لقاء القوة والجمال في أبيات عنترة والمتنبي، ننتقل إلى فارس آخر يصور، لنا كيف يحزن الأبطال؟ كيف يجتمع الحزن الذي لا يخلو من وهن، والقوة التي تعمر قلوب الأبطال؟

2- كيف يحزن الأبطال؟

قال مالك بن الريب يرثي نفسه وهو موشك على الموت في أرض نائية عن أرضه التي شبّ فوق ثراها[5]:

1- تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ   سِوَى السَّيْفِ والرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ باكيا

2- خُذَانِي فَجُرَّانِي بِفَضْلِ رِدائِيَا   وَقَدْ كانَ قبلَ اليومِ صَعْبًا قِيادِيا

ففي البيت الأول صورتان إحداهما مشرقة والأخرى قاتمة، إحداهما من أرض البطولات والأخرى من عالم الحشرجات والسكرات... وشتان بين الصورتين. ولكنَّ خيال الشاعر الخصب أقام مقارنة بينهما ليستدر عصي الدمع من قراء شعره عبر العصور... فلئن افتقد بواكيه ومؤبنيه في ساعة رحيله، نجده يُهيب بقارئي شعره أن يتأملوا غربته وعزلته وموته بعيدًا عن أهله وأترابه... فلعل روحه المتعطشة للمواساة تهنأ كلما لامست كلماته أسماع قراء شعره، فوصلت إلى قلوبهم، ووصلتهم بشاعرهم... فيكون تواصله الشعري والشعوري خير مؤبّن له ومودع... وخير ذكرى وصدى... فإن شفاء نفسه عبرة تريقها عين قارئ، أو خفقة يجود يجود بها قلب سامع... وكيف لا تشفى نفسه بذلك وقد شفيت نفس امرئ القيس قبله بعبرة يذرفها على طلل دارس، حيث قال:

وإنَّ شِفائِي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ   فهلْ عندَ رَسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ[6]؟

صورتان في البيت متباعدتان أشد التباعد. الأولى: ترسم لنا بالإيحاء والتلميح بقوله: **"وقد كان قبل اليوم صعبًا قياديا".** صورة الشاعر في ميعة صباه وريعان شبابه، وهو يكر على الأعداء برباطة جأش، لا يعرف خورًا ولا جبنًا، إنه مرهوب الجانب، يتحاماه الفرسان الأشداء.. إنه لا يذعن ولا ينقاد، يتأبَّى على

الخضوع والمهانة؛ إذ كيف يخضع لخصمه مهما يكن شأنه.. فهو الفارس الذي خَبِرَتْه السيوف والأسنة وساحات الوغى... يصعب على أنداده أن يبارزوه أو يشقوا له غبارًا.

والصورة الأخرى تتضوع ألمًا وتقطر حسرة.. فهو رجل هرم، خارت قواه، وهدّه الكِبَرُ، وبلغ العجز منه كل مَبْلَغ، فارتخت سواعده المفتولة، وضعف كفه عن الإمساك بسيفه، وهزل عاتقه عن امتشاق رمحه، وكلَّت قدمه عن اعتلاء صهوة جواده، فاعتزله سيفه ورمحه، وفارقته فرسه، فهو قعيد الفراش، يصارع الهزال والمرض، ويرتقب الرحيل... ويطلب من صاحبيه أن يلفاه فيما تبقّى من ثوبه... إنه يفضل أن يكفن في ردائه.. الذي يحمل في طياته عطر الأيام الخوالي.. عطر أيام الصبا والشباب.. عطر أيام البطولة...!

فلعلّ نفسه الموشكة على الرحيل تأنس برائحة ردائه الذي يحمل أيامه الغرَّاء وتاريخه المشرق... فالثوب الذي شهد الوقائع والمغازي أجدر من أي قماش آخر - مهما يكن شأنه-، بأن يلفّ في طياته جثمان الفارس المغوار... فلا مشيعين له ولا بواكي... وبواكيه السيف والرمح صاحباه في ساحات الوغى. فقال مصوّرًا ذلك: خذاني فجرَّاني بفضل ردائيا. وللخيال أن يرحل مع كلمة "جرَّاني"، إنها توحي بعميق الألم الذي يعتصر قلب الشاعر لِمَا ألمَّ به من وهن وهزال، فبعد أن كان يجر الأبطال، أضحى اليوم "يُجرّ" إلى مثواه الأخير. وشتان بين "جرّه" الأبطال و"جرّه" إلى قبره...

ومما يتصل بعالم القوة الإصغاء إلى صيحة قوية... وإلى **صرخة حميَّة وإباء:**

قال سعد بن ناشب غاضبًا لِهَدْمِ داره[7]:

1- سَأَغْسِلُ عنِّي العارَ بالسَّيْفِ جالِبًا	**عَلَيَّ قضاءُ اللهِ ما كان جالِبا**
2- وَأَذْهَلُ عنْ دارِي وأجعلُ هَدْمَها	**لِعرْضِي مِنْ باقِي المَذَمَّةِ حاجِبا**

تأملات وتداعيات في فضاء (المعنى):_تمتد التأملات وتتشعب بما يفضي به المعنى ويبوح به، وقد نكتفي بلمسات موحية للمعاني المطلة أو البارزة... على سبيل المثال لا الحصر...

البيت الأول: العار – هنا- أقذار وأوساخ.. فلئن كانت الأقذار تزال بالماء وغيره من أدوات التنظيف... فإن العار أشد قذارة من الأقذار... لا يعالج إلا بواحد من أشد الأسلحة القديمة فتكًا.. ألم يقل قائلهم:

متى تَصْحَبِ القلبَ الذَّكِيَّ وصارمًا	**وأنفًا حميًّا، تجتنبْك المظالمُ[8]**

إنَّ العار الذي لحق بـ (سعد بن ناشب) لا يطاق ولا يحتمل فلا مجال للتفكير بالعواقب... إنَّ أدنى حساب للعواقب سيقود إلى شيء من التمهّل أو التردد... والمقام لا يقوى على شيء من هذا... لقد بلغ السيل الزبى... فالمسكن الذي هو موطن السكينة، وعنوان الأمن والأمان والاستقرار... قد هدم... فإذا هُدِم المسكن ومعه السكينة فما الذي بقي من متاع الحياة يستحق التمهل والتدبُّر والنظر إلى العواقب... فالأرض والعِرض عندهم صنوان أو توءمان.. فإذا سقط أحدهما... أو ألمَّت به نازلة فلم يبق شيء في الحياة يستحق التمسك به... فالذي هدم الدار وجاس في الحمى واعتدى على الأرض، سوف يعتدي على الشطر الثاني من شطري الكرامة، وهو العِرض.. فالخطب جلل، والأمر خطير... فعلى المرء أن يذود عن الأرض قبل أن يُدنَّس

العدوان الأرض... إنَّ هذا الدَّنَس العدواني الذي لحق بالأرض لا يُجهز عليه إلا السيف والفتكة البكر... فالمرء لا يتسنَّم ذرا المجد إلا بالسيف وتلك الفتكة التي وُصِفت بالبكر؛ لأنها كالصاعقة التي تفجأ الخصم وتدعه شارد اللبّ يغوص في بحر من الذهول والانكسار...

فما العاقبة التي يخشاها المرء بعد أن صَدّع العدوان بنيان كرامته؛ بالاعتداء على داره... فلا عواقب تُجتنب... ولا مكاره تُحتسب... لقد غُلِّقت أبواب الكلام، وصمتَ الحرف... وسُدَّت منافذ التأمل والتواصل... إنَّ الموقف – هنا- يحقّ له أن يعانق القول الفيصل لأبي تمام:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ‏ ‏ ‏ ‏ في حدِّهِ الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ[9]

فشفرة السيف هي الفاصل، هي الحد المميّز الذي يجلّي الحقائق... ويدفع التُّرَّهات وكل صنوف العدوان... **ولك –عزيزي القارئ- أن تتخيل المشهد...** فأمامنا امرؤ هبَّ بكل ما لديه من قوة وحميَّة، لا يوقف انطلاقته بشر ولا حجر و لاخطر... انطلق بفؤاد يغلي غليان المرجل... وقد تخفف من كل ما يعوّق اندفاعه... فربما ألقى من يده كل شيء سوى سيفه.. ألقى الصحيفة والزاد والنعل... لا ليفر بل ليكرّ.. عيناه يتطاير منهما شرر الثأر، وجَنانه مفزَّع لكنه صامد، وفرائصه ترتعد لا خوفًا أو جبنًا ولكن تأهبًا للنزال والقتال... لقد صغرت الدنيا في عينيه، وتضاءلت الحياة على جمالها ولذائذها... فهو في حال ذهول مطبق... فبهدمِ داره هُدِم الجدار الأول للكرامة، والخشية بعد ذلك على الجدار الأخير وهو العِرْض.. فلكيلا تلحقه المذمّة القاتلة التي لا مردَّ لها. فقد اتخذ من غضبته المُضَريّة هذه حصنًا واقيًا يحمي عِرْضه من الهوان... ويدرأ غائلة العدوان.. فداره غدتْ فداء لِعرْضه...

إن ما تقدَّم من الاستشفاف والتصور نابع من مشهد ماثل تكاد العين لا تخطئه... دار – بكل ما تعني الكلمة من عمق ومعنى- تُهدم، ولنا أن نتخيل مدى التصدع الذي يحل بقلب صاحبها وهو يرى جدران داره تتصدع وحجارتها تتناثر... إنه يحسّ أنَّ جوارحه تتناثر أشلاء، كما تتطاير حجارة داره تحت معاول الهدم... ولنا أن نتخيّل أيضًا أنَّ وراء هذه الدار أو في بعض جنباتها أهله، زوجه وأولاده ومن يلوذ في كنفه... إنَّ غبار الهدم غشَّى عيونهم، وإن ضربات الفؤوس المنهالة على الدار تُدمي قلوبهم قبل رؤوسهم... فبعد هذا المشهد الذي يأخذ بقلب الجبان فيستفزه ويستنفره... فكيف بصاحب القلب الذكي والأنف الحميّ؟! فلابد من صولة وفتكة... لابد من ضربات صارم بتَّار تطيح برؤوس الهدامين وتبتر الأيدي الآثمة... ومما يُذْكي أوار هذه الغضبة والحميَّة أصوات أبناء وبنيّات يصطرخون ويستغيثون... وراعيهم هو أَوْلَى الناس بالذَّوْدِ عنهم، فتراه يثب بسيفه يغسل العار... ويبني الكرامة... ولا يدع مجالا للعتاب أو الملامة...

إنه لمشهد يستحقّ التأمل والإعجاب معًا... إنه غَسْلٌ لا كالغسل إنه غسل نأى عنه الماء وكل عوامل التنظيف المألوفة، لأنَّ الأمر جَلَلٌ يتطلّب هذا النوع العجيب من الغسل. بالماء تُزال كلّ الأقذار... وقد يصاحب الماء ما يساعده على إحلال النظافة ورحيل كل مُستكرَهٍ... ولكنّنا أمام مشهد مغاير لِمَا نألف.. فلا الأقذار هي الأقذار... ولا الماء هو المزيل لها.. فالقذر –هنا- عار يُدمي القلب، ويُغرق النفس في بحور الأسى... فهو داء عضال... لا يقوى الماء – على كل ما يتمتع به من قوة- على إزالته وغسله... إنه عار يسطو على القلب والدم، فلا يُغسل إلا بصارم يريق الدم... صارم يُريق دم المعتدي؛ ليهب الحياة الكريمة... للدم المسفوح بغير حق... ويحق لسعد أن ينشد مع المتنبي كما أنشد مع عمرو بن برَّاقة من قبله:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبِهِ الدمُ[10]

إنَّ حجارة داره لا تعود لها الأنفة والشموخ إلا إذا أُعيد بناؤها مضرَّجة بل مزيَّنة بالدم... دم الكرامة الذي يمحق دم العدوان ويغسل الإهانة...

رسم المشهد واستشفاف ظلاله الدَّلالية :

نحن أمام إرادة صلبة، وعزم وتصميم... نحن أمام فارس غاضب يستهل كلامه بقوله**: "سأغسل"**، ولم يقل: سأزيل... ولنا أن نتلمس بخيالنا **الفرق بين "الغسل" و "الإزالة".** فقد تقع الإزالة لشيء ما، ولكن تبقى له آثار أو بقايا... ولكن "الغسل" يوحي لنا بأنه إزالة لا تُبقِي للمغسول أثرًا أو رائحة... كما نستشف من "الغسل" أنَّ هناك أقذارًا تجب إزالتها... **فاستعارة "العار" لـ "الأقذار"** دلَّت على بركان الغضب الذي يعتمل بين جوانح الشاعر سخطًا على ما حَلّ بداره. وأردف ذلك بأداة من حقل دلالي مغاير... فالسيف للفتك والقتال، ولكن عندما يكون القذر من نوع آخر يفوق القذر المعهود في الاستكراه فلابد له مما يناسبه لابد له من أداة ترقى إلى مواجهته واستئصاله... فالعار ذروة القبح والسوء، فالسيف أمضى وأجدى وسيلة للإجهاز عليه. **فالجمع بين الحقول الدلالية المتباعدة مكَّن الشاعر من أن يجعل أخيلتنا تتصور عِظَم الخطب** الذي حلَّ به، كما جعلنا نتضامن معه في محنته، ونرتضي الذي ارتضاه، فهو لم يدع للحوار بابًا، بل أغلق أبواب الكلام، واستل سيفه وربما امتشق الحسام... ثم وضعنا بعد غضبته هذه أمام قمة الرضا والتسليم... تجلَّى ذلك **بقوله: "جالبًا" مرتين**. فبوثبته الثائرة وسيفه المسلول سيُوقع بمن هدم داره أفعالاً وأهوالاً... لها عواقب مؤلمة قاسية له ولخصمه... ولكنه راض مرحِّب بهذه العواقب... بل هي في نظره قضاء من الله أجراه على سيفه ويده... فلا تضجُّرَ ولا تحسُّرَ على أي حال تؤول إليها هذه المواجهة أو الرد الغاضب... **وإنَّ موقع "ما" في قوله: "ما كان جالبًا" يوحي بعواقب مؤلمة، للخيال أن يرحل حيث يشاء** في استقصائها وتصورها، فقد تكون قطع أيد أو أرجل أو رؤوس مع ما يرافق ذلك من انهمار الدماء، وتعالي الصرخات والآلام، مشاهد قاسية...أنينٌ وجراح نازفة وحشرات أرواح راحلة... هناك **مشهدان متقابلان**... مشهد هدم بكل ما ترسمه الكلمة... من تساقط وتناثر... وغبار... وصخب.. وخوف ورعب، وصرخات واستغاثات... يقابله مشهد الاقتتال وما فيه من دماء وآلام إنه رد فعل يفوق الفعل... ويغلب على طبائع ردود الأفعال أن تفوق الأفعال...

استيحاء السَّبك أو استنطاقه:

أمَّا استنطاق الأصوات (الحروف) والكلمات والتراكيب أو السبك فإنه يبوح لنا بما لا يتسع المقام لحصره... **فتكرار (السين ثلاث مرات في الشطر الأول** يدل على العزم والحسم) اللذين يوحي بهما **"الغسل"** و **"السيف".** فالغسل إزالة لا أثر بعدها للشيء المستكره، والسيف (بجَرْس حروفه) حاسم ملائم للعار الذي لا يجدي معه شيء آخر. **وتكرار "جالبًا" في البيت الأول** يجعل المتأمل يستشعر المشقة والرضا معًا... المشقة التي تصاحب الجلب، والرضا بما جُلِبَ أو حَلَّ... لأنَّ العار أشبه بكهف مجهول الآفاق والأبعاد، ولا يُعلم مدى الآلام والعذابات التي تجوسه أو تصطرع فيه. فالصورة الملائمة لهذا الكهف المجهول الأبعاد، استدعى رضا لا حدود له، مرحّبًا بكل الجراح والمآسي التي يتمخض عنها الصراع مع الهدَّامين...

وإنَّ الإبهام المتخيّل من (ما) في قوله: "ما كان جالبا" قد استوفى مشهد الرضا والتسليم بكل آفاقه الممتدة المترامية، فجاء مشهد الرضا موازيًا لمشهد (العار) بل لا مقارنة بينهما، إذ لا سبيل إلى تصوّر ما يجلبه "قضاء الله"... جلّت قدرته...

وبعد التطواف في عوالم القتال والقوة، قد تكون النفوس راغبة في استراحة المحارب... فمن دنيا الحرب إلى دنيا الحب... ولعل في الثانية هدأة وبهجة، على الرغم مما بينهما من نقاط التقاء أو قواسم مشتركة، فكلاهما فيه معاناة وألم، مع اختلاف المذاق...

من دنيا العشّاق:

قال عمر بن أبي ربيعة مصوِّرًا حالة عشق وهيام اعترته[11]:

1- ليتَ هندًا أَنْجَزَتْنا ما تَعِدْ	**وشَفَتْ أَنْفُسَنا مِمَّا تَجِدْ**
2- واسْتَبَدَّتْ مَرَّةً واحدةً	**إنَّما العاجزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ**

استهل البيت الأول بالتمني لعسر المطلب، ثم جعل الإنجاز منصبًّا عليه، وعلى الوعد. ولأن المقام مقام وجد وعشق جاء الفعل محمَّلاً بمعنيين: الإنجاز، ومَنْحُه لطالبيه... **وعَبَّر بصيغة الجمع بقوله؛ (أنجزتنا)** لنستشف أبعاد الحالة التي ألمت به... فهو وإن كان فردًا، لكنه يحس بأنه جمع... تشكَّلَ الجَمْعُ منه وممَّا يَعْتَمِلُ في صدره من مشاعر وأحاسيس وهواجس وآمال وذكريات وطموحات وما يشابهها من معانٍ وتداعيات... ثمّ إن هذه الجموع من المعاني والمطامع الواعدة **أوجزها بقوله: "ما تعد".** فـ(ما) تحمل كل هذه الجموع، لما تتصف به من إبهام وتخييل... **كما ساعد على ذلك حذف العائد والجار** المفهوم من السياق فأصل القول: ما تعد(به).

فلخيال المتلقي أن يجمع ما يشاء من تداعيات المشاعر في ظل الإبهام الذي تحمله (ما)، ويساعدها في ذلك حذف العائد والجار (به)... فبالاسم الموصول وعائده المحذوف فتح الشاعر أمام الخيال آفاقًا رحيبة تتسع لِمَا يجيش في صدره وخياله. **وفي قوله: (شفت) إيحاء آخر**. فهو مريض بالعشق دَنِفٌ متيّم... وكل مريض على اختلاف أنواع المرض، يتوق إلى الشفاء... فالتعبير بالشفاء أوفى وأعمق من التعبير بغيره من المفردات التي تدل على الخلاص من المأزق... لأنَّ الشفاء المرجو يدل على العشق المستبد به لدرجة مرضيّةٍ... وأعظم أمل للمريض هو الشفاء قبل أي أمل آخر... **وليكون التعبير موافقًا لواقع الحال قال: "أنفسنا"..** إذًا معاناته نفسية... وأكْبِرْ بها من معاناة... فإذا تعبت النفس أرهقت الجسد والعقل والخيال وجميع مكوّنات الإنسان... **وجاء قوله: "ممَّا تجد"** ملائمًا لما هو فيه من ضنك ومكابدة... فالاسم الموصول (ما) مناسب للتعبير باتساع وشمول عن جميع أصناف العَنَتِ والضيق التي تطبق عليه من كل جانب...

وقوله: **"تجد"** جملة غنية وقادرة على التعبير عن حاله... فهي تجلعنا نفهمها باتجاهين، وكل منهما متسع ملائم للمقام... فالفعل تجد من (وَجَدَ، وَجْدًا ووجودًا). وكلا المصدرين يحمل أطيافًا من المعاني تغني السياق وتفصح عن الحال التي ألمَّت بالشاعر... فهو (واجدٌ) من الوجد؛ أي مواجه ما لا يُحصى من أحاسيس العشق وآلامه... وهو (واجدٌ) من (الوجود)؛ أي ملامس بيده، ومبصر بعينيه لما وُجِدَ حوله من أمواج متاعب

الغرام. فتعانق المعنيان (الوَجْد والوجود)، الإحساس والمعاينة أو اللمس... وبلقاء القطبين (الحسّيّ والمعنويّ) تتشكل دارةٌ ذاتُ شِحْناتٍ متنوعةِ الأطياف... مترامية الأطراف... وسياقُ الحال جدير بذلك كلّه...

وفي البيت الثاني تجاوُزٌ وتَخَطٍّ وقبولٌ غريبٌ... تجاوزٌ وتخطٌّ لأعراف الحياة المتوازنة... فهو مرحِّب بالاستبداد... والنفوس بفطرتها تنفر من الاستبداد وتتوق إلى الحرية... فالحرية أسمى غايات الحياة... ولا تتنازل عنها إلا النفوس المريضة... وفي البيت أيضًا قبول غريب... فالفطرة السليمة تأبى العبودية لأن الإنسان خُلِقَ حرًا... ولكن ليجعلنا الشاعر نطلّ على بحر معاناته.. وليحملنا إلى آفاق مكابدته تجاوز وتخطّى وقَبِلَ... تجاوز الأعراف الأصيلة والقيم المثلى.. تخطّى ذلك، وقَبِلَ أن يكون عبدًا لمستبدّ... بل تغنّى بالاستبداد.. وجعله علامة القوة... فغير المستبد عاجز... أما المستبد فهو القويّ المقدّر... إن القبول بالاستبداد والخضوع تقابله مكاسب ومغانم... فكل تضحية تعود بمغنم لا يقل عن درجتها وشأنها العالي... فهو يقبل أن يكون عبدًا لمستبد... ولكن أي عبودية هذه؟ وأي مستبد هذا الذي أسلمه زمام أمره؟

العبودية – هنا- عكس العبودية بمعناها الشائع.. إنها الخضوع للمحبوب... ففي عالم الحب تنقلب الموازين وتختلّ المعادلات والقيم المألوفة... فيصبح الاستعباد مطلبًا.. والاستبداد مطمحًا... فالخنوع للمحبوب فيه ما فيه من شفاء لأسقام الهُيام والعِشق؛ فهذا اللون من الخنوع صار دواء على الرغم من أنه داء في عالم الأعراف والقيم... ولكنه في دنيا الحب دواء وشفاء... والاستبداد الذي تمجه النفوس الأبية وتعافه العقول السليمة يغدو مطلبًا؛ لأن العاشق يجد في ظله راحة قلبه وهَدْأَةَ نَفْسِهِ... فهو يتوق إلى القرب من المحبوب في كل أحواله وتجلياته. فلئن فاته أن يحظى بالوصول أو التواصل مع مَنْ يهوى في عالم القيم والأعراف المألوفة، تراه يطمح إلى تحقيق ذلك في عالم القيم المعكوسة أو المخالفة... فهو مرحِّب بأن يكون عبدًا لمن يحب... وهو راغب بالاستبداد بل مستحثّ لمحبوبه على أن يسلك هذا الطريق؛ لأنه باستبداد محبوبه به يحظى بالوصول إليه وبالقرب منه... فإذا عجز عالم الحرية والإباء عن تحقيق مطامح العاشقين فهم مرحبون بعالم الاستبداد والعبودية لمن يعشقون... فما أغربَ عالمَ الحب الذي تختلُّ فيه الموازين وتنقلب القيم... ويصبح الدّاء دواء، بعد أن استفحل الدّاء وعَزَّ الدواءُ...

وبين العشق والطبيعة آصرة قوية، تجلى ذلك في قول من قال: "الماء والخضرة والوجه الحسن" فمن الوجوه الحسان، إلى الماء والخضرة... فهلمَّ بنا إلى:

أحضان الطبيعة الغنَّاء:

قالت الشاعرة الأندلسية(حمدونة بنت المؤدِّب) تصف واديًا رائع الجمال[12]:

1- **وَقانا لَفْحَةَ الرَّمْضاءِ وادٍ … سقاهُ مُضاعَفُ الغَيْثِ العميمِ**
2- **حَلَلْنا دَوْحَهُ فَحَنا علينا … حُنُوَّ المرضعاتِ على الفطيمِ**
3- **تروعُ حصاهُ حالِيَةَ العَذَارَى … فَتَلْمَسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيمِ**

قيل في تعريف الأدب: هو فن الكتابة الجميلة. فلنقف مع الصور الجميلة:

- **الظلال الدلالية / التداعيات الدلالية:**

- **وقانا: لنا أن نتخيل قيمة الوقاية.**
- **غيث + مضاعف + عميم.**
- **حللنا: الحلول ربما بعد عناء، أو معاناة...**
- **الدّوح: الشجر الكثيف الملتف (ظل الصورة)...**
- **حنا: الحَدَبُ + الانحناء العطوف+ الحنان/ الحنو (وما بينهما من ظلال دلالية)، الفرق بين: (حنا وحنَّ) أُثر الألف الممتدة وانعكاسه الدلالي/ والنون المشددة وأثرها الدلالي.**

الفرق بين حنوّ وحنان المرضعات: الفرق بين: المرضع/ المرضعة. وأثر هذا في اختيار المرضعات محلَّ الأمهات.

- **تروع: الرّوع/ الرّوعة...** الدهشة من شدة الجمال تصل إلى حد الرّوع. (الفرق بين: تروع/ تخيف)

ظِلُّ الخوفِ: فزع شديد من مكروه. أمَّا راعه: أعجبه إلى حد الدهشة التي تمتزج بالخوف ظاهرًا، لكن مع اختلاف الباعث أو المثير. وهنا: دهشة وحرص على شيء نفيس.

حَصَاهُ: الحصا تتلألأ (في الماء الزلال)... كحبات العقد.

تكرار حرف (الحاء). وظله الدلالي والصوتي... والتقارب/ التجانس الصوتي مع كلمة (بحبوحة): وما نعنيه من رغد العيش وهناءته.

- **ثم صيغة فعيل بمعنى (مفعول)**: الظل الدلالي: للفطيم والمفطوم... ففطيم: أقرب لجو الجمال والحنان والإعجاب من (مفطوم): التي تحمل (من خلال الميم في أولها والميم في آخرها، مع جرس الواو: الذي يمتد الصوت فيه إلى الأعلى... وما يوحي به هذا الامتداد من قوة أو حتى عنف يبعد بنا عن السياق والجو... جو الحنوّ...

أما **الفاء":** فيها انفراج الشفتين... وما يصاحب ذلك من انفتاح وانطلاق يلائم السياق أكثر من وقع حرفي الميم في بداية (مفطوم) ونهايتها.. وما يوحي به ذلك من انغلاق وحبس وكتم... لا يساعد على الاتساق مع الجو والفضاء الذي يخيم على المشهد...

- **حالية العذارى:**_فالعذارى: وحدها ليس لها هذا الظل الذي يتكون من انضمام (حالية) إليها... **فالعذارى:** توحي بالحداثة والبكورة... وميعة الصبا... وريعان الشباب... وما يستتبع ذلك من إيحاءات تطوف أو تحلق بنا في جو الفتوة وجمال الصبا.. فإذا انضمت إليها (حالية) ازدراد المشهد إيحاء وتداعيًا واستدعاء لأطياف يلمّ بها الشعور والإحساس أكثر من إلمام الحرف والكلم... **ولا ننسى إضفاء الجمع (عذارى)..** وما يشي به من ائتلاف وتجمّع، وما يصحب ذلك من زيادة وتنوّع واتساع في مشهد جمع العذارى.. وما يحضر في الخيال من مقارنات وتأملات في درجات الجمال والحسن، وأطياف هذا الحسن المتنوع المؤتلف.

- **جمال الحركة: تروع... فتلمس**... تأمل مع المشهد.. الدهشة الناجمة عن الإحساس بقوة الجمال.. وأثر المنظر الحسي في الشعور... الحصا المتلألئة في أرض النهر.. يمسها الماء الزلال الذي ينساب برفق فيتصاعد رذاذ من ماء منعش يذهب بالرمضاء ولَفْحها... فينتعش به الوجه واليدان قبل أن ينتعش الجوف بشربه والاستمتاع بمذاقه العذب الصافي... إنَّ هذا النقاء ائتلف وأرض الوادي المزدانة بأحجام وأشكال وأنواع من الحصا تستدعي نظائرها وأشباهها من الجواهر التي تنتظم بها العقود التي تزين النحور...

جمال الحركة في المشهد: الحصا المتلألئة عبر الماء الفرات المنساب برفق.. وحبات العقد المتوهجة في النحور... وصفحة الماء الزلال... وبياض النحور التي تضفي بصفائها على حبات العقود نقاء يضاهي جمال التوهج المنبعث من الحصا المنتشية بعذوبة الماء وصفائه ونقائه **(بياض+ صفاء+ عذوبة+ انسياب**... تتخلَّل ذلك ومضات تنبعث من حصيات منتشية ببرودة الماء وعذوبته وصفائه... يقابل ذلك: **"نحور وأعناق**: تشع بياضًا... يتخلله بريق تتفاوت تألقاته طولاً وقصرًا وتعددًا وتوجهًا... من حبات انتظمت في عقود تزينت بها تلك النحور والأعناق. مشهدان... يحار الخيال في الإبحار فيهما.. والإحاطة بتداعيات كل عنصر من عناصر المشهدين.. ولا يكاد يحيط بكل ما ينبعث منهما وما يثيره من أصداء وتداعيات لا تكاد تنتهي...

(الفاء) في قولها: فتلمس توحي بالترتيب والتعقيب دون مهلة أو تراخ كما يرى النحاة... وكان التأمل في المشهد يقود إلى ظل آخر للمعنى... نعم هناك إثارة واستجابة فيها ما لايخفى من الاستعجال والتعقيب... مشهد مثير (**حصى تتلألأ تحت صفحة الماء العذب**) فتأتي الاستجابة عاجلة.. هاتفة أو قائلة:

أحقيقة ما أراه أم خيال؟ .. أهذه حصا في ماء صافٍ أم حبَّاتُ عِقد انتثرت في الماء فتركت هذا التألق والبريق؟ فالمهلة الزمنية قصيرة بين رؤية الماء ولمس العقد... ولكن اللمس الذي وقع على أطراف العقد... يوحي بشيء آخر بشوبه الإحساس بالجمال الأخاذ الذي يختلف تمامًا عن الرعب ساعة الفزع...

- **(مقارنة بين : رَوْع الإعجاب... ورَوْع الفَزَع والرُّعْب...):**

فدهشة الجمال لها مذاقها المختلف عن دهشة الرعب والخوف... فكلتا الدهشتين تثير وتصدم وتحرك، لكن مع الفارق الكبير... بين أحداق عيون متسعة إعجابًا واستمتاعًا واستحسانًا.. وأحداق تتسع رعبًا وهلعًا وفزعًا... فمنطلق (الروع) وآثاره ومظاهره قد تتشابه شكلاً وحسًا... ولكن الفارق كبير بينهما في الحس والشعور... فهنا فؤاد يهتف للجمال... ويتيه به إلى حدّ الذهول والاتحاد والاندماج به، وهناك وفؤاد يرتجف فرقًا من خطر محدق لا تُعلم نتائجه...

فأنامل الفتيات لم تمتد إلى نحورهن وعقودهن امتداد خوف كالذي يتملكهن عندما تسطو عليهن وعلى قلائدهن يد لص مفاجئ... فاللمس –هنا- كان رفيقًا رقيقًا... يناسب طبيعة المشهد والحَدَث... فإذا استدعينا – في الخيال- حركة الأنامل وهي تمس (أطراف) العقود... وليس مجمل العقود... **نحس بالفرق الكبير... بين لمسة الفزع ولمسة الإعجاب والدهشة الناجمة عن الإحساس بالجمال بل بروعة الجمال... فشتان بين اللمستين..** على الرغم من التشابه في الأداء الظاهر بينها.. فكلتاهما حركة واستجابة لمثير... ولكن الباعث على الاستجابة مختلف تمامًا... فتلمُّس العقود كّلها من جميع أطرافها ومحاولة الإحاطة بها بشكل عشوائي مصحوب بارتجاف في الأيدي وفزع في الفؤاد من يد لص آثمة لا تتوقّى شيئًا، همُّها السَّلب والنَّهب.. هذا

التلمُّس مختلف تمامًا عن لمسة الرّفق المنبعثة من الجمال الساحر لمشهد ملأ العين والنفس سحرًا وروعة... فامتدت اليد إلى العِقْد... للتأكُّد ودفع اللَّبْس الشعوري الذي جعل العذارى الحاليات **حائرات بين تداخل المشهدين**... الحصا المتلألئة في الماء الصافي... وحبات العقود المتوهجة في النحور البيضاء...

الأبيات التي تناولتها الإضاءات:

1- من مشاهد القوَّة والجمال:

أ- قال عنترة مصوِّرًا نفسَهُ بين عالمَي الحبّ والحرب::

ولقدْ ذكرتُكِ والرِّماحُ نواهِلٌ منِّي وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنَّها لَمَعَتْ كبارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

ب- قال المتنبي يمدح سيف الدولة:

وَنَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرَةً كَما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدراهِمُ

2- كيف يحزن الأبطال؟

قال مالك بن الريب يرثي نفسه وهو موشك على الموت في أرض نائية عن أرضه التي شبّ فوق ثراها:

1- تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ سِوَى السَّيْفِ والرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ باكِيا
2- خُذَانِي فَجُرَّانِي بِفَضْلِ رِدائِيَا وَقَدْ كانَ قبلَ اليومِ صَعْبًا قِيادِيا

3- صرخة حميَّة وإباء:

قال سعد بن ناشب غاضبًا لهدم داره:

1- سأغسل عني العار بالسيف جالبًا علي قضاء الله ما كان جالبا
2- وأذهل عن داري وأجعل هدمها لِعِرْضِي من باقي المذمة حاجبا

4- من دنيا العشَّاق:

قال عمر بن أبي ربيعة مصوِّرًا حالة عشق وهيام اعترته:

1- ليتَ هندًا أَنْجَزَتْنا ما تَعِدْ وشَفَتْ أَنْفُسَنا مِمَّا تَجِدْ
2- واسْتَبَدَّتْ مَرَّةً واحدةً إنَّما العاجزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ

5- في أحضان الطبيعة الغنَّاء

قالت الشاعرة (حمدونة) الأندلسية تصف واديًا رائع الجمال:

1- وَقانا لَفْحَةَ الرَّمْضاءِ وادٍ سقاهُ مُضاعَفُ الغَيْثِ العميمِ
2- حَلَلْنا دَوْحَهُ فَحَنا علينا حُنُوَّ المرضعاتِ على الفطيمِ
3- تروعُ حصاهُ حالِيَةَ العَذارَى فَتَلْمَسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيمِ

الحواشي:

[1] محمد أحمد مرجان: مفتاح الإعراب ص55 -

[2] د. مفيد قميحة: المعلقات العشر: ص196.

[3] ديوان المتنبي: ص 388.

[4]ديوان المتنبي: ص 145.

[5] يوان مالك بن الريب حياته وشعره: تحقيق د. نوري حمودي القيسي، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية: مج 15، ج1، ص 88.

6 ديوان امرؤ القيس: تحقيق (أبو الفضل إبراهيم) –ص9.

[7]خزانة الأدب للبغدادي تحقيق عبد السلام هارون،ص 145/8

[8] المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: د. محمد الدالي،ص 351

[9] ديوان أبي تمام: شرح الخطيب التبريزي، ص32/1.

[10] ديوان المتنبي: ص 388.

[11] ديوان عمر بن أبي ربيعة: ص 106، رقم القصيدة 95.

[12] المقَّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص827. حمدة ويقال" حمدونة" بنت زياد بن تقيّ العوفي (بنت المؤدِّب). شاعرة أندلسية (،توفيت عام 600 هـ). ونسب إليها أهل المغرب الأبيات الشهيرة التي ينسبها بعضهم إلى (المنازي) الشاعر المشهور وهو أحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

وينظر: - الأعلام، خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – (274/2).

- أعلام النساء، عمر رضا كحالة: – مؤسسة الرسالة – (1/ 292-293).

المصادر والمراجع:

1- ديوان امرؤ القيس: تحقيق (محمد أبو الفضل إبراهيم) – سلسلة ذخائر العرب(24) – دار المعارف، القاهرة، ط1384،5- 1964.

2- أحمد المقَّري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968م.

3- البغدادي: خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة،ط1، 1406 – 1986م.

4- ديوان أبي تمام: شرح الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 1414هـ 1994م.

5- ديوان عمر بن أبي ربيعة: قدَّم له ووضع هوامشه وفهارسه د. فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت ط2، 1416هـ - 1996م.

6- ديوان مالك بن الريب حياته وشعره: تحقيق د. نوري حمودي القيسي، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية.

7- المبرد:الكامل في اللغة والأدب، تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط4، 1425هـ - 2004م.

8- ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر، 1403هـ - 1983م.

9- د. مفيد قميحة: المعلقات العشر(شرح ودراسة وتحليل)، دار الفكر اللبناني،بيروت، ط5، 2002م.

10- محمد أحمد مرجان: مفتاح الإعراب، حققه وعلق عليه علي نجار محمد (من أبناء الأزهر الشريف)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1421هـ - 2000م.